كانت الليلة تميل الى الدفء وأنا أعبر الممشى المشجر المؤدى الى مسكن عميد الأدب . والبيوت على الجانبين ليس فيها الا النور الداخلى فلف الحى هدوء طارىء فوق هدوئه الطبيعى .

وعند منحدر الطريق لمحت على البعد مصباحا ساهرا على باب الدكتور طه كانما ليرشد الضيوف . وكان وحده هو الذى يلقى النور على الطريق الذى ظللته الأشجار .

وكنت أحدث نفسى مقدما عما سأقوله له .. وكان فى النفس أشياء كثيرة يمكن أن تقال . عندما يرتفع الحجاب بين الأستاذ والتلميذ ويحس كل منهما أنه جزء فى (محيط الحقائق) .

وقبل أن أصل الى باب الدكتور طه عبرت الى ذهنى خاطرة من كتاب «الأيام» هى كلمات أعرفها .. فى نبرات لا أعرفها لكننى حاولت أن أجعل نبرة المتحدث بهذه الكلمات قريبة جدا من نبرات طه حسين . ولو أن ذلك كان فى خريف سنة ١٩٠٢ ، حين قال له أبوه وهو صبى لا يزال فى القرية بنبرة لا شك أنها قريبة من نبرة الدكتور طه :

« أما فى هذه المرة فستذهب الى القاهرة مع أخيك وستصبح مجاورا وستجتهد فى طلب العلم . وأنا أرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيا وأراك من علماء الأزهر قد جلست الى أحد أعمدته ومن حولك حلقة واسعة بعيدة المدة » .

وفى هذه اللحظة كنت قد وصلت الى باب الفيلا فابتسمت لخواطرى . وتصورت (الحلقة البعيدة المدى) التى تحققت لطه حسين .. والقاهرة مركزها والعالم محيطها . وأمنية أبيه له قد ترجمت الى كل لغات الدنيا .

وخطوت عدة خطوات الى الداخل بعد أن أخذت عينى لافتة على الباب الخارجى كتبت عليها كلمة « زامتان » اسم الفيلا التى يسكنها طه حسين .

ولم أدق الجرس ليفتح لى الباب الثانى بل وقفت برهة أتأمل الليل والأشجار الحانية على المبنى فى وداعة . والسكون « الحى » الذى هو فى الحقيقة مصدر الحركة بالنسبة لساكن الفيلا .

ولم يكن الدكتور طه فى قاعة المكتبة حين دخلت (كما تعودنا أن نلقاه) كان لا يزال مشغولا مع أحد الصحفيين الأجانب . وجلست مع سكرتيره الأستاذ فريد شحاته نتكلم فى شئون الأدب والتاريخ . وكنت أنا فى دائرة ضوء احدى «الأباجورات» الكبيرة التى توجد فى قاعة المكتبة وأمامى أوراق وقهوة . وفى الرفوف على الجدران الأربعة أفكار أجيال فى مجلدات مختلفة الاحجام كان سكرتير

الدكتور يشـــير الى بعضـها كلما دعا الحديث ·

ثم نهضت لأسلم على طه حسين·دخل مؤلف (الايام) وعلى فمه ابتســـامة لم تستطع الايام أن تسلبها خصائصها· وكان بادى النشاط فى هذه الليلة فقلت له وأنا محرج بعض الشىء :

ـ أرجوك يا سيدى ·· عندما تضيق بوجودى أن تسمح لى بالانصراف ·

فضحك فى سماحة وقال لى :

ـ تأكد أننى لن أضيق بوجودك مهما يطل · ولكننى قد أضيق بالأسئلة· هذا كل مافى الأمر ·

عندئذ سألته السؤال الأول · قلت:

ـان قصة الأيام من القصص التى استولت على قلبى · قرأتهـــا وأنا فى مقتبل شبابى تحت مصباح الجاز فى حى وطنى · وأنا أعتبرها من أهم أعمـالك الأدبية · فهل من الممكن أن تحدث قراء مجلة القصة عن الارهاصات التى سبقت هذا العمل ؟ ·

كان القلم فى يدى مستعدا للكتابة · وكنت أرقب الدكتور طه الذى ظننته سيصمت طـــويلا قبل الاجابة · لأن استعادة الماضى أحيانا تتطلب تجمعـــا ووثوبا · لكن اشارة بدء الحديث لمعت على فمه ·· وكانت ابتسامة صغـيرة · قال بعدها :

ـ لعل أخص خصائص كتاب (الايام) انه كتب للهرب من الحياة الواقعـــة · تصور أننى كتبته هربا من الحياة الواقعة.

كنت حينئذ فى فرنســـا · وكنت ضائقا أشد الضيق بالحياة العقليـــة فى مصر لأن أزمة كتاب (الشعر الجاهلى) المشهورة كانت قائمة على قدم وســـاق ودخلت أزمته الى البرلمان وهـــدد عدلى بالاستقالة ·

كل هذا أصابنى بضيق شديد جعلنى أفزع الى الماضى · فأخذت فى املاء الجزء الأول من الكتاب وأنا فى الخارج · وانتهى العمل وانتهت اقامتى فى فرنسا وعدت الى وطنى الى مصر · فوجدت شيئا هاما بانتظارى هو أننى محال الى النيـــابة للتحقيق معى فى أمر كتاب (الشـــعر الجاهلى) ·

وذهبت الى غرفة رئيس النيابة · اننى لا ازال أذكر لقبـــه فهو من عائلة نور المشهورة ووجدت فى القاعة عددا ضخما من علماء الأزهر جاءوا ليناقشونى فى الموضوع أمام رئيس النيـــابة بناء على دعوته اياهم وأذكر أن النقاش امتـــد بيننا طويلا حتى تعبوا . عندئذ قال أحد العلماء لرئيس النيـــابة : ياصـــاحب السعادة : ليس عندى ما أقوله فى هذا المقام الا ما قاله ابن حزم فى الأشعرى : « الأشعرى كافر حلال الدم » . وقال آخر : « وهذا دم ضيعه أهله .

غير أن الجدل استمر بعد ذلك طـويلا حتى صاح الشيخ الابيارى فجأة من شدة الصداع وهو يضع كفيه على صـدغيه : ياصاحب السعادة ·· اطلب لى فنجـالا من القهوة ·

وسكت طه حسين قليلا ورجع برأسه الى الوراء كأنما ليتذكر شيئا جديدا ثم قال لى :

ومن الغريب أننى أمليت الجزء الثانى فى فرنسا وأنا فى أزمة كذلك كنت وقتئذ عميدا لكلية الآداب وحدث نزاع بينى وبين الحكومة بسبب كتاب لبرناردشـو كان يدرس فى الكلية رأت الحكومة فيـه

سنيا لا يرضيها . وكان وزير المعارف في ذلك الوقت هو المرحوم الدكتور هيكل في وزارة محمد محمود . وفوجئت بمظاهرة تعبر الى حجرتي كانت مؤلفة من طلبة كلية الحقوق كلفوا بالهجوم على عندئذ رأيت أنه لامفر من الاستقالة . ثم سافرت الى فرنسا فأمليت الجزء الثاني من كتاب الأيام .

قلت للدكتور طه :

أليس من الغريب أن يكون الهروب من الحياة الواقعية سببا في أن تكتب للأدب العربي قصة واقعية ؟ .

قال :

نعم .. هذا غريب ..

قلت في نفسي : ان الأزمة قد تخلق البطل وتمنح المعجزة .

وكانت خواطري أو جزء منها مع فنان يعيد منح الأدب العالمي كثيرا مما منح نتيجة لأزماته . دستويفسكي الذي قال لدائنيه وهم يطرقون عليه الباب وهو يكتب : « اننى مدين لكم بأكثر من المال» لأنهم كانوا يدفعونه الى الكتابة .

ثم قلت لعميد الأدب وأنا أنظر اليه وكأني أنظر الى أحد المحاربين القدامى الذين لم يلقوا السلاح . وجهت اليه السؤال التالي :

ـ لاتزال المعركة بين القديم والجديد قائمة وان تغيرت الأرض والأسلحة والاغراض .

وقد رفعتم لواء هذه المعركة في أوائل هذا القرن . فهل من ذكريات عنها ؟

قال الدكتور طه :

ـ كنت مشرفا على صفحة الأدب في جريدة السياسة . وكانت الأمور تمشي عادية جدا حتى جاء مقال بعنوان : «رسالة عتاب الى صديق » وكاتب من المرحوم مصطفى صادق الرافعي .

وأقول لك الحق : اننى قرأت الرسالة بامعان شديد فضقت بها أشد الضيق . ثم عدت فقرأتها فاشتد ضيقي . لأنها كانت مكتوبة بأسلوب لا يطاق . عندئذ نشرتها مع تعليق عليها . أذكر أنني قلت فيه : ان الأسلوب الذي كتبت به هذه الرسالة أصبح لا يلائم روح العصر . ولابد أن تتحرر الكتابة من جديد من الأغلال التي يفرضها عليها الرافعي .

وكان الرافعي سريع الغضب فرد ردا عنيفا ورددت ردا أعنف ومن هنا قامت المشكلة بين القدامى والمحدثين . واشترك في هذه المعركة العقاد والمازني . وكان من أثر ذلك أن ألف الرافعي كتاب «على السفور » ضد العقاد . ثم ألف كتاب « تحت راية القرآن » ردا على كتاب « الشعر الجاهلي » الذي سبق الحديث عنه وكانت مقالات الرافعي عني أقرب الى الشتم بل ربما كانت شتما صريحا جارحا وكانت تنشر في احدى الصحف اليومية وأظن أنها (كوكب الشرق) .

وضحك الدكتور طه كأنما ليمهد لاعتراف قبل أن يقول :

وهكذا اشتدت الخصومة .. اشتدت الى حد أنني كنت أهاجم كل كتاب يظهر لمصطفى صادق الرافعي . لكني لا أزال أقرر أن أحسن كتاب له هو « الرواية والرواة » والمعركة لا تزال قائمة حتى اليوم كما قلت .

والشبان يفهمون أنني أنا والعقاد من أنصار القديم . لكنني مثلا أستطيع أن أقرر أنني لست ضد الشعر الجديد على طول الخط مثل موقف العقاد منه . انني أبيح الشعر الجديد وأقبله على شرط أن

يكون « شـــعرا » بمعنى أن تتوفر له الموسيقى والمعانى والأخيلة ويكون ملائما للذوق مرضيا له معبرا عن الطموح الى أمام ·

لكن هناك فرقا بين المعركتين· فالذين كتبوا بين الحرب الأولى والثانية كانـوا مثقفين ثقافة واسعة متنوعة عميقـة · وكانوا يكثرون من القراءة · أما الذين يكتبون الآن فأقل مايوصفون به أن ثقافتهم محدودة وقلما يقرأون ·

ثم عرض الدكتور طه لعدة صـور للموضوع :

صورة المعـاداة للآداب العـالمية · وصورة اللغة التى يكتب بها أدبنـا أو يترجم :

قال :

أما معاداة الآداب العالمية فليس لهـا معنى الا أن نعيش على (نفسنا) حتى نزوى ونموت · وأما لغة الادب كتابة وترجمة فقد كثر فيها الحديث · لـكنه يحضرنى عنوان كتبه فى الجمهورية نعمان عاشور هو « لغة المسرح من تانى) وهذا يذكرنى بترجمة شكسبير للعامية التى كان نعمان عاشور ينوى تنفيذها · وعلى رأى الدكتور مندور فى هذا : « وعندما تنادى « ديدمونة » (عطيل) فانها ستقول له : « ياعطول » ·

وضحك الدكتور طه ثم استطرد :

صدقنى أنهم يظلمون الشعب · ان هذا الشـــعب يحب كل الحب أن يقرأ العربية الفصحى وأن يسمع العربيـة الفصحى · صـــدقنى أنه شعب عميق التذوق، والتحدث اليهم بالفصحى يرفعهم فى أنفسهم · وأذكر أننى عنـدما كنت أتحدث فى الراديو بالفصـــحى كانت رسائل الاستحسان والاستزادة لاتنقطع عنى · والمسألة بعد ذلك ليست محتاجة الى توضيح ·

قلت لعميد الأدب :

ـ المدارس الأدبية التى تتتابع عـلى أدبنا كلها من بلاد أجنبية تصل الينا بعد ازدهارها فى مواطنها ·

فأكمل قائلا : أو زوالها ·

قلت :

نعم أو زوالها ·· وبعد ، فهل ترفضون قصة عربية ما لا تتبع أحدث المدارس القصصية ؟ ·

فقال الدكتور طه :

ـ لا ، مطلقا ، لا ترفض القصة من أى مدرسة أدبية · لكن هناك شيئا هاما يجب أن نعرفه . هو أن الذين يتكلمون عن الواقعية يفهمون خطأ أن الواقع هو التعبير بالعامية لأن أبطال القصة هم فى الواقع ناس يتكلمون العامية · والحرص على هذا الواقع منقول الينا من روسيا بلا اتهام ·

واتجه الى الدكتور طه يؤكد أنه لايحب أن يتهم أحدا وانما هو يقصد وجه الحق بل هو لا يستسيغ الاتهام · واستطرد :

وهناك دليل آخر على ما أقول : هو أن كل الكتب فى روسيا تكتب باللغـة الروسية العالية · وفى فرنسا أيضا·· كان هناك كاتب واحد أو اثنان أرادوا أن يكتبوا الأدب باللغة الدارجة وبذلوا محاولة بعد أخرى لكنهم فشلوا ولم تنجح محاولاتهم ·

وجرنا ذكر المدارس الأدبية الى سؤال أكثر أهمية كنت أكتم فى نفسى بعض الحرج من التوجه به الى طه حسين لكننى قلت :

ـ هل الشخصية الادبية العربية لم تصل بعد الى حد النضج الذى يمكنهـا

من ارساء مدرسة أدبية عربية مستقلة كالرومانسية والواقعية التى وردت من الخارج ؟! ·

فقال عميد الأدب :

ـ السر فى ذلك هو أننا نتعلم الفصحى ولا نتكلمها · خذ مثلا لذلك ·· الشعر ·· نحن نعرف الجاهليين فى شعرهم ونعرف أوزانه كذلك لكن من المؤكد أنه فى صدر الاسلام والعصر الاموى دخلت الحضارة الى الحجاز ودخل الاسرى الاجانب والموسيقى والغناء · فنشأت فى الشعر العربى أشياء جديدة · فقد ابتكر الشعر بحورا أخف من بحور الشعر الجاهلى أوزانها قصيرة تتواءم مع التوقيع الموسيقى وعرفت (المجزوءات) وقس على ذلك ما حدث فى العصر العباسى · ولما اشتد الخلاف بين العرب وغيرهم تأثر الشعر بهذا فاندفعوا فى التجديد ·مال كل شىء الى الخفة · والتجديد فى المعانى أمره مشهور عند أبى نواس · والتجديد فى الاوزان أمره مشهور عند مسلم بن الوليد · بيت الشعر العربى أخذ عنه هذه الصورة :

محمد بن منصور الفتى الجواد
وضحك طه حسين قبل أن يقول :
تصور أننا لانتكلم الفصحى حتى لو جلست أنا والعقاد ·

ثم بدا عليه الارتياح وقال :

لكن ·· مع ذلك يخيل الى أننا وصلنا الى جديد وهو تبرئة الاسلوب العربى من السجع والبديع حتى أصبحنا نكتب بسهولة · ببساطة يفهمها الشعب ·كم تظن عدد الطبعات التى طبعها كتاب الايام ·

قلت : أظنها عشرين طبعة ·

فقال : لا ·· أكثر ·· كم عدد الطبعات يافريد ·· نعم ·· تمان ·· ثمان وعشرون طبعة طبعها كتاب الايام للبساطة التى يفهمها الشعب ·

قلت : هل يأمل الدكتور طه أن تولد عندنا مدرسة أدبية عربية يوما ما؟

فقال : أرجو أن يكون ذلك قريبا بشرط أن تدرس اللغة العربية درسا منتجا · وأنا أراهن أن الطالب عندنا يعرف اللغة الأجنبية التى يتعلمها أكثر مما يعرف الفصيح من العربية · وأذكر أن ابنى كان يدفع فى المدرسة التى يتعلم فيها عشرة قروش للكتبة وكان المدرس يكلفه قراءة كتب أدبية هامة ثم يسأله عما قرأ وكان يسهر ليقرأ · وكانت الأنوار تطفأ فى حجرات المسكن الا فى حجرته حتى كانت أمه تضطر فى بعض الليالى لمغادرة حجرتها لتطفىء عليه النور لكى ينام · وأذكر أننى قلت لمدير المدرسة التى يتعلم فيها : أرجوكم أن تخففوا عنه من القراءة شيئا ما ·

ثم أحضرت لابنى مؤنس مدرس لغة عربية وسار معه المدرس شوطا طويلا · حتى فوجئت ذات يوم بدخول ابنى على وهو فى أشد حالات الغيظ وقال لى :

هل تستطيع يا أبى أن تتحمل هذا ؟

فسألته : ماذا ؟

فقال : فى الصباح أقرأ فى المدرسة كورنى وراسين · وبعد الظهر فى البيت أكتب موضوع انشاء عربى عن مناقشة بين الحجر والمسمار ؟! ·

وابتسمنا معا ـ الدكتور طه وأنا ـ ونحن واثقان أن كل شىء يتغير الى أحسن وأفضل · ثم سألت الدكتور طه :

ـ الى أى حد تغيرت مسئوليات الاديب العربى اليوم عنها قبل ذلك ؟

فقال :

ـ انها لم تتغير بل انها تتطور ·

ثم استطرد يؤكد كل كلمة ينطق بها كأنما يخاف على أن أنسى :

ـ الأديب مسئول عما يكتب من جهة ومسئول عن أن يكون ما يكتبه هادفا الى أن يرقى بالجماعة من جهة أخرى . ومسئول أمام القانون وتلك أخف مسئولياته لأن المسئولية الكبرى هى أن يعرف أنه يجب أن يكتب ليرفع الجماعة لا لينحط بها . هذه هى مسئوليات الاديب .

ـ هل أدى الناقد العربى دوره المطلوب منه ؟

فأجاب الدكتور طه :

ـ هل تريد الجواب ؟

قلت :

ـ بلا شك .

قال :

ـ لم يؤد النقد العربى دوره حتى الآن ..

ـ لماذا يا سيدى ؟!

ـ الجواب ليس عندى . بل الجواب فى الكتب والصحف والمجلات التى وجدت بين الحربين . فان شئت فارجع الى ما كان يكتب فيها . واقرأ ما يكتب الآن وأنا لا أشك فى انك ستجد الفرق هائلا . وأقل ما يوصف به النقد فى الفترة التى أعنيها .

أنه كان فوق الاعتبارات الشخصية وأذكر ان كتابا ظهر للعقاد فى تلك الفترة وكان العقاد يكتب فى صحف الوفد فاثنيت عليه أنا فى الصحيفة التى اكتب فيها ولم تكن صحيفة وفدية ، وغضبوا منى يومئذ لكننى لم أبال . لان النقد الادبى فى رأيى يجب أن يكون فوق كل اعتبار . ومن النقاد الذين شاركوا فى النقد الاصيل فى هذه الفترة العقاد والمازنى .

قلت : وعلى ذكر النقد والنقاد أحب أن اسأل سيادتكم :

ـ هل تفضل أن يستقل الاديب العربى بنوع أدبى واحد فيكون قصاصا أو شاعرا أو ناقدا أو تفضل العكس ؟

ـ أنا أفضل أن تقولوا : « كاتب وقصاص » أو « كاتب وشاعر » وسأذكر لك شيئا من القديم وشيئا من الجديد فى الاجابة عن هذا السؤال .

أما القديم ، فقد قال المبرد مؤلف الكامل فى كتابه : « باب نذكر فيه من كل شىء شيئا . ثم عرض المؤلف لتعريف الاديب .

فقال : انه من يأخذ بطرف من كل الوان المعرفة .

أما الجديد : فالكتب القليلة التى ظهرت فى النقد فى الادب الانجليزى كلها لا تعجبنى . فالكاتب أديب والاديب من يأخذ بطرف من كل ألوان المعرفة .

أما احتكار النقد أو احتكار أى لون من ألوان الفنون فلا أصفه الا بأنه تعصب وليس هناك شىء يدعو الى التعصب الا الجهل .

ان قواعد النقد عندى كلام فارغ . فهناك جانبان لكل نقد مقرران معروفان عند الامم .

خذ القصة مثلا . فنحن عندما نقرؤها نسأل أول ما نسأل : ما أثر هذه القصة بالقياس الى الذوق ؟ ثم .. ما العيوب التى يمكن أن توجد فيها من جهة الواقع أو من جهة اللغة أو غير ذلك ؟

وهذا هو الواقع عند كبار النقاد الفرنسيين . فهم لا يعرفون قواعد النقد . والنقد عندهم ملائمة العمل الفنى

للقواعد العامة من جهة ثم للقواعدالخاصة من جهة أخرى ·

أما ما يسمى بقواعد النقد فسيكون مصيره مصير كتاب الخطـــابة وكتاب الشعر لارسطاليس ·· كتاب الخطابة ·· راح ·· وكتاب الشعر ·· راح

فالكاتب يكون قصاصا وشـــاعرا وناقدا ·

هذا ما أعرفه ·

وسكت طه حسين وعلى محياه دلائل انتظار لسؤال آخر · لـــكننى أدركت أننى قضيت ســـاعتين كاملتين وأنا استمتع بحديثـــه · وكانت نوازع الاستزادة تملأ نفسى · لكن وهج المدفأة الكهربائية القريبة من المـــكتب ذكرنى أننا فى الشـــتاء · وأن من حق الذين لا يبخلون بأوقاتهم وجهودهم على الناس ألا نثقل عليهم ·

وخرجت وأنا أذكر قـــوله عن الادب والأديب :

« ان الادب حاجة تضطر الاديب الى الحركة فيتحرك · وتدفعه الى العمـــل فيعمل أما عواقب هذه الحركة ونتـــائج هذا العمل فأشياء قد يتـــاح الوقت للتفكير فيها فى يوم من الايام حين تصبح أمرا مقضيا لا منصرف عنه ولا سبيل الى التخلص منه » ·

وتوقفت وأنا لا أزال عـــلى مقربة من الباب حتى خيل الى أن أرجع لاســـأل الدكتور طه عن معنى هذا · لـــكننى تذكرت أنه قال لى :

« ان مسئولية الاديب الكبرى هى أن يعرف أنه يجب أن يكتب ليرفع الجماعة لا لينحط بها » .